

" قراءة في كتاب "

القط في المعتقد الشعبي وأصوله الحضارية

اسم الكتاب: القط في المعتقد الشعبي وأصوله الحضارية

المؤلف: فؤاد مرسى

الناشر : الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة

سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية – القاهرة ٢٠١٠م

لا شك في أن كل انسان منا يحمل في داخل نفسه ذكريات أو علاقة ما مع القط

فالقط هو الحيوان الأليف الأول الذي يمكن أن تقع عليه عيني أي طفل ، ومنذ بداية تلك العلاقة تتحدد ملامح الإستمرار أو الإنقطاع ، الحب أو الكراهية ..

يبادرنا أستاذنا الكبير خيرى شلبي رئيس تحرير هذه السلسلة الهامة بمقدمة شيقة لا تقل بحال عن إبداعه الروائي فهو يعرفنا بما سماه السحر القططي وعلاقة المصريين منذ قدم التاريخ بهذا الحيوان الأليف الذي يعيش بيننا وقد يصبح في بعض الأحيان فرداً من أفراد الأسرة مصداقاً لقول رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه بأن القطّة من متاع البيت ..

يصف رئيس التحرير هذه العلاقة بالتاريخية ويحدثنا عن ذلك الخيال الجامح الذي سكن المخيلة الشعبية إلى حد تأليف الأساطير وسعياً للوصول إلى تفسيرات مقنعة لما نسج حول هذا الحيوان من حكايات وما غلفت به سيرته من غموض مبيناً أن حيوان القط قد استحوذ علي اهتمامات الفراعنة القدامى ترك أثراً كبيراً في ثقافتهم ووعيهم لدرجة أنه قد أصبح عندهم في مرتبة الآلهة وأنه – أي القط – قد أسس لنفسه دولة في داخل الوجدان المصري واحتل مكانة كبيرة لدرجة ارتباطه بالعشرات من المعجزات والحكايات الخارقة ..

ولم يتركنا " العم خيرى " إلا وسرح بنا بعيداً إلى قريته في دلتا نيل مصر العظيمة ليحكى لنا عن

قصة غريبة حدثت هناك..

ورغم العلاقة التي وجدت بين الناس والقطط إلا أن البعض منهم قد كرهه إلى درجة المطاردة واللعن.

مما لا شك فيه أن كل واحد منا ارتبط ذات يوم بعلاقة طيبة مع القط ، وربما العكس ، ففي مرحلة الطفولة يبدأ الخوف ثم اللهو وبعد ذلك تتحدد العلاقة إذا ما كانت ستستمر أم لا ..

فهناك نوع من الناس جعل من هذا الحيوان الأليف رفيقاً له لدرجة أن هناك بعض الشخصيات وخاصة من السيدات اللاتي بلغن من العمر أرزله ، كما أننا في مرحلة الطفولة كنا نغني نشيداً مدرسياً يقول مطلعاه :

قطتي صغيرة اسمها نميرة

شعرها جميل ذيلها طويل

لعبها يسلي وهي لي كظلي

عندها المهارة كي تصيد فارة

أما عن مؤلف الكتاب فهو الأديب فؤاد مرسى ، كاتب مصري وروائي وقاص تحلى بالصبر والأناة ولا يستعجل خطوه ، وباحث في التراث الشعبي يبذل الجهد ويقدم العمل وسبق أن قدم في حقل أعمالاً إبداعية جميلة ، ثم أنه أحد المثقفين المصريين الذين لا يخلون بجهدهم في الإبداع الأدبي.

أورد المؤلف في البداية جملة تكتيكية يفهم المرء منها بأن العمل الذي قدمه ليس إلا محاولة للتفسير وسعي بدأ وبذل الجهد بين الناس ليلتقط من أفواههم الكثير من القصص والحكايات وأورد قصة حقيقية سمعها بالفعل تتداول علي ألسنة الناس عن غرائب القطط ووقائعها وذلك من خلال حادثة حريق شبت النيران فيه في بيت شيخ يرتاده الناس لأغراض متعددة ثم سكنت هذا البيت أسرة قوامها رجل وزوجته ومعهما طفلة حملت بين يديها قطّة صغيرة ..

ثم يورد بعض الحكايات الأخرى وعددها سبع حكايات استلهمها جميعاً من المحكي علي ألسنة الناس كنماذج لما ينتشر عن هذا الحيوان داخل مفهوم الجماعة الشعبية وفي معتقداتهم " حيث يشكل القط بكافة أجناسه مساحة كبيرة من الثقافة الشعبية التي ترسم سلوك الناس وتصرفاتهم اليومية بشكل عام ومدي تعاملهم مع هذا الحيوان ودرجة تعلقهم به".

ثم يعرج المؤلف بنا نحو المعتقدات التي تدور حول القط وهي تشكل في يقين الجماعة الشعبية منظومة متكاملة تعمل علي تنظيم العلاقة بين الإنسان وهذا الحيوان الضعيف الأليف حيث تتسم هذه العلاقة بالتوازن وتداخل العناصر وتشابكها بصورة عضوية بما يعمل علي تغذية بعضها البعض ، ومن هنا تتعدد الجوانب وتتنوع الأطياف وتختلف الرؤي بما يعالج الجانب الأكبر من تفاصيل الحياة كاملة ..

وأكد المؤلف بأن ما دعاه لإنتاج هذه الدراسة هو سعيه في محاولة للوصول إلي عتبات الإلمام بتفسير واحد من جوانب المعتقدات الشعبية حيث اعتمدت الدراسة علي جمع المادة من مصادرها الشفاهية التي تنوع فيها الأشخاص من حيث البيئة والموقع الجغرافي الذي يعيشون فيه سواء في الوجه البحري أو الوجه القبلي والتنوع من حيث الذكورة أو الأنوثة مع الأخذ في الاعتبار المرحلة العمرية المختلفة بما أتاح للباحث فرصة سانحة للولوج إلي هذا العالم السخي ليغنم بفوز والحصول علي مادة خصبة مكنته من التحقق من مدي انتشار المعتقدات المرتبطة بعالم القطط ..

كما لم ينس المؤلف أن يقف علي الكثير من المصادر التي تناولت حياة هذا الحيوان بشكل عام أو من خلال الصور الأدبية والقصص التاريخية أو الدينية كما بحث في المصادر المتعلقة بالبحث عن تاريخ وجغرافية الأماكن المرتبطة بموضوع الدراسة.

قسم المؤلف دراسته علي محورين أولهما السعي لإستقصاء خصائص القط المميزة له عن سائر الحيوانات من خلال الإعتقاد بأن ثمة لغة خاصة للتفاهم مع القطط من خلال أناس يستطيعون فك طلاسمها وحل مفرداتها وفهمها مع الإعتقاد بوجود قوي خاصة لهذا الحيوان وطبيعة هذه القوي.

وكما بين الموروث الشعبي تلك العلاقة فإن رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه قد حث علي ضرورة حسن التعامل مع هذا الحيوان والرفقة به وكان صلي الله عليه وسلم يقول عن القطط أنها من متاع البيت كما أنها لا تبطل الصلاة ، وأنه صلي الله عليه وسلم كان يتوضأ من الماء الذي شرب منه القط ، وأنه ليس بنجس وأورد عن الرفقة بالقط فثمة امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض .

كما قدم المحور بعض الطباع والسمات المنسوبة للقط ومدي اعتقاد الناس في تنكره لأصحابه (زي القط بتأكل وتتكز) وهو مثل المقصود به الشخص الذي يتنكر للآخرين علي الرغم مما قدموه له من مساعدة أو أعتانوه وأورد المؤلف عدداً من الأمثال التي دارت حول القط وكذا بعض الممارسات ..

في المحور الثاني يقول المؤلف أنه سعي للتعرف علي تلك القدرات الخارقة التي يتمتع بها القط سواء من الناحية الطبية أو السحرية ومدي الإرتباط بينه وبين التفاؤل والتشاؤم وبني هذا المحور علي نقاط مثل الرقي التي تستخدم في أعمال السحر المبنية علي القطط أو استخدام عظامها أو أجزاء من جسدها فيها ومدي العلاقة بين هذا السر الغريب الذي يكمن حول تردد القطط علي الأماكن التي سبق وأن لقي واحداً منهم حتفه فيها وتفسير معني سماع صوت القطط في الأحلام ومعني دلالة رؤية هذا الحيوان في المنام وتشاؤم الناس من القط الأسود ، والإعتقاد بأن القط يري الملائكة كما أنه يري الشياطين ...

ويورد المؤلف علاقة أن أرواح الأطفال تتلبس القطط وأن أرواح الموتى تحل في أجساد القطط كما يوضح الكتاب ضرورة التحذير من إيذاء القطط أو ضربها .

اعتمد الباحث في كتابه علي ماجاء في الدليل العلمي للمعتقدات الشعبية الذي أعده الدكتور محمد الجوهري أستاذ علم الإحتماع وقدم نموذجاً متصوراً لجميع المعتقدات المرتبطة بهذا الحيوان .

يلفت المؤلف النظر بأن هذا البحث ليس هو بالقول الفصل إنما هو محاولة للوقوف علي حكمة وأسرار الجماعة الشعبية في تعاملها مع القط.

واتخذ المؤلف منهجه في البحث نحو تبني بعض إنجازات النظرية الوظيفية التي تسعى لدراسة الظواهر الإجتماعية والثقافة ومدي الاستفادة من أساسيات المنهج التاريخي الذي يقوم علي اعتبار الكيان الثقافي شيئاً متطوراً ومتغيراً عبر العصور.

فالقطة في الثقافة الفرعونية استحوذ علي مساحة كبيرة من حياة المصري القديم كما أنه كان محط احترام حتي وصل إلي مرحلة أن المصري القديم جعل من القط إلهاً ، ولم يقف الحال عند هذا بل أن القط ارتقي من المستوي المحلي إلي المستوي العالمي .

فالأسرة الثانية والعشرين التي جعلت من " تل بسطة " عاصمة لملكها كانت تقدم القرابين للإلهة باستت طمعاً في نيل رضاها واتقاء غضبها كما كانت هناك الكثير من التعاويذ التي تحفظ صاحبها من غضب هذه الآلهة بعد الموت.

وتشير المصادر إلي أن القط لم يظهر في التاريخ إلا في مرحلة متأخرة وأن أول اشارة له ترجع إلي حوالي سنة ٢١٠٠ ق.م وبعدها شاع استعمال صورها في زخرفة جدران المصاطب وهناك الكثير من التماثيل التي تمثلها مودعة بمعبد " القطة " في مدينة " بوباسطة " وهذا عمل مدعاة للتودد إلي هذا الحيوان الأليف حيث تمثل بعض هذه التماثيل جسد امرأة لها رأس قطة أليفة أو وهي ترضع قطيطاتها أو وهي جالسة علي عرشها متحلية بالجواهر أو متأهبة للوثوب،

وأورد المؤلف إلي وجود تعويذة في كتاب الموتى تتلي عندما يقوم القمر بتجديد نفسه في أول كل شهر مبيناً أن هذه التعويذة تشير إلي أن من يعرف هذا الفصل من الكتاب سيكون روحاً ممتازة في عالم الآخرة وإنه في حالة الموت سيكون في العالم السفلي وسيتناول طعامه بجانب أوزير .

ويورد المؤلف أيضاً العديد من الصور التي تمثلت فيها القطط ومنها تعاملها مع المصري القديم ومن ناحية أخرى تطرق المؤلف إلي وجود القط في حقل الثقافة العربية مستنداً إلي كتاب المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي والذي ذكر فيه الكثير من القصص التي قيلت عنه

وحول بعض الأسماء التي أطلقت عليه وعلاقة هذه الأسماء بالأحجار الكريمة كما تحدث عن أصل وجود القط وكيف خلقه الله سبحانه وتعالى مبيناً أن هناك نوعين من القطط أحدهما وحشي والآخر أهلي.

والقط حيوان أخلاقي لا شك في ذلك وهو من الحيوانات النادرة التي خصها الله بخصائص لا تتوافر في غيره فله القدرة على التعلم السريع ويتقبل اللوم والتأديب ، وهو حيوان له من الطباع من حيث الألفة مع الناس وطبيعته هذه الألفة منها أنه يمنع دخول قط آخر إلى مكان تواجد فيه ، ومن صفاته الأخرى أنه حيوان يجيد التملق حيث تجده يتمسح بين سيقان أصحابه مهما بالغوا في إيذائه وتعنيفه.

وأورد المسعودي بأن حيوان " الفيل " بجلالة قدره لا يستطيع الثبات عند مواجهة القط "

كما أن القط يتميز بصفات خلقية منها صفاء العينين عند امتلاء الهلال ونقصان هذا الصفاء مع نقص الهلال .

وتناول الكاتب قصصاً وردت في كتب التراث عن العلاقة بين القط بالموروث الشعبي في أمور العلاج أو الرؤيا ، كما أورد العديد من الأمثال العربية وبما تحمله كتب التاريخ العربي من عشرات الحكايات حوله.

أما القط في المعتقد الشعبي فقد أورد المؤلف تعبيرات وحكايات نقلها من المتداول علي ألسنة الناس وهو المسمي بالأدب الشفاهي وجاء بتعليقات تناولت سلوكيات الناس مع هذا الحيوان ومدي فهمهم للغة التي تصدر عنه وما تتسم به العلاقة في التعامل مع القط في الثقافة الشعبية وعن تشاؤم الناس من سماع مواء القط ومدي ما تتمتع به من قوى جسمانية خاصة وإمكان حلول روح أحد الموتى في جسد القط واستخدام ذيل القط في أعمال السحر.

وقد بلغ حرص الناس علي عدم إيذاء القط منحي اكتسب فعالياته من الاعتقاد بأن القط ربما يكون ملاكاً أو متجسداً فيه فيجب عدم إيذاؤه لئلا يحل بالفاعل غضب من الله أما إذا كان من الجان فإن من يتعرض له بأذى يصبح هدفاً فيما بعد للإنتقام من فاعله .

وقد أخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن الشيطان تعرض له في أثناء الصلاة علي صورة قط ، وورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يمتنع عن دخول البيوت التي بها كلاب بينما يدخل البيوت التي فيها قطط حيث قال أنها من الطوافين والطوافات وأنها من متاع البيت.

وأوضح المؤلف مدي صدق ما حاق ببعض من قاموا بإيذاء هذا الحيوان الضعيف أو أحبوه ومن هنا تتجلى حكمة الجماعة الشعبية في نسج وصياغة الحكايات المروعة عن القط .

وهناك اعتقاد يسود في صعيد مصر بأن التوأم المولود بعد من سبقه تتلبس روحه جسد قط لمجرد أن ينام فيأخذ هذا القط في التجول في الأماكن القريبة من دائرة البيت ومن بيوت الأقارب ويؤكد بأن الطفل النائم هذا يحظر مسه أو ايقاظه من النوم أو لمس جسده فكأنه بلا روح وقد يتعرض في مثل هذه الحالة للموت.

ويحذر أهالي الأقصر من إلحاق الضرر بالقط مقطوع الذيل وللوقاية من أن تتلبس روح القط جسد أي طفل فعليهم القيام بوزنه بميزان الذهب في يوم السبوع ثم يُسقي شربة واحدة من لبن النوق (أنثي الإبل) وإلا سيظل الطفل في حالة من السرحان طوال عمره ولا يعود إلي حالته الطبيعية أبداً .

أما في مناطق الغردقة فيتناول التوأمين فقط لبن الناقة وكذلك في سوهاج وأسيوط ، إلا أن هذا الإعتقاد لا يسري في كثير من البلدان التي تؤكد الأمور بأن سن البلوغ تمنع استمرار هذه الحالة خاصة وأن الصغير يكون قد كبر ويستطيع التحكم في نفسه .

وفي النهاية يمكن القول — حسب المؤلف — بأن هذه الكتابة التي قام بها هي محاولة جادة للتفسير قام بها وقد استند إلي العديد من المصادر والمراجع .

المصدر / موقع شباب مصر